ERC

نورالدين المكشّر

زعماء الإصلاح وقضيّة "تعدّد الزّوجات"

دار البيروني للنشر

إلى :

حواء العربية.

إلى :

والدتي اِعترافا بالجميل

من فكر النهضة... إلى نهضة الفكر

... بعد مضي قرن من الزّمان على النّهضة العربيّة الإسلاميّة الحديثة، رسخ في اعتقاد الجميع أنّ المشروع قد بات واقعا ملموسا، وأنّ عجلة التاريخ قد دارت به نحو أهدافه المرسومة. فاعتبره أهل النّظر من أصحاب القلم جزءا من التراث يتصفّحه المرء تصفّحه لسجلّ من سجلاّت التاريخ الحديث وطورا من أطوار للفكر آتى أكله ثمّ ولّى، ومرحلة طويت من مراحل الحضارة في زحفها نحو متجدّد الآفاق. فإذا كتبوا عن النّهضة عرّفوا بها وبأسسها وأعلامها، وكانت قصارى جهودهم الإشادة بفضلها على الأجيال اللاّحقة والإعتراف لها بما تنعم به مجتمعاتهم من يقظة حديثة. فإذا أنجزوا كلّ ذلك وقضوا به دينا في رقابهم، لأولئك الرّواد كان محطّ أنظارهم أن يلتفتوا إلى مستجدّات قضايا عصرهم ليتقدّموا بالمسيرة أشواطا أخرى.

أمّا أرباب العمل الميداني وفي طليعتهم رجال الحكم والسياسة فقد ولّوا هم أيضا وجوههم شطرا للقضايا الراهنة وأيقنوا أنّ من مهامّهم الأولى إقامة الصرح الذي أرسى السّابقون له الأساس، وأن ينشدوا بلوغ أهداف أسمى وآفاق أرحب، فرفعوا ألويّة تجاوزوا بها شعار النهضة الذي رفع الأجداد لواءه منذ القرن الماضي فإذا هم يلهجون

"بالتفتّح "والإنطلاق" و"الإقلاع" و"التنمية" وغيرها من اللاّفتات البرّاقة، حتى كان يوم أدرك فيه أولئك وهؤلاء أنّ الواقع قد بدا مسفّها لأحلامهم، وأنّ رواسب الماضي أخذت تطفو على السّطح من جديد وبأشدّ عنفا وقوّة من ذي قبل، وأنّ القضايا التي واجهها المصلحون الأوائل بكلّ أبعادها السياسيّة والإجتماعيّة والثّقافيّة قد عادت لتطرح نفسها عليهم ثانية بعد أن مضى عليها قرن من عمر الزمان. فأفاقوا من أحلامهم إفاقة المنزعج من سبات، وراود بعضهم الخاطر المريع والفكرة الحيرى بأنّ النّهضة لم تحدث بعد وأنّها أصيبت بما يشبه الإجهاض، وأنّ على العرب المسلمين أن يعودوا القهقرى إلى تدبّر شؤون نهضتهم من جديد. وأنّ أمورهم أضحت عودا على بدء لكنّ برد اليقين قد غمر الصّدور حالما انجلت عن العقول غمرة الإندهاش فكان ما سمّاه بعضهم بالإستفاقة وما أسماه الآخرون بالصحوة. وإذا بالأقلام تتجنّد لنوع آخر من الكتابة وإذا بالألسن تلهج بضرب آخر من الخطاب ظلّ في معظمه خطابا حول النّهضة وحديثا عنها ولكن من منظور جديد عماده تفحّص المواقف والآراء وتدبّر الأسس والأركان والتمعّن في الآليات والمناهج. وهي في جملتها كتابات "تروم تقويما لتراث فكر النهضة ونقدا لمضامينه وتجلّياته وتعقّبا لمواطن الضعف والقوّة فيه، بحثا عمّا عساه أن يشكل تفسيرا ما للوضع الدائري الذي تعيشه مجتمعات العصر والمخاض العسير الذي كان وراء

عمليّة الإجهاض.

وليس من شأن عمل تقويمي كهذا أن يكون نابعا من الإحساس بالخيبة وانحسار الأمل، بل من شأنه أن ينبني على الاقتناع بحتميّة النقد الذاتي لكلّ مشروع بشري والاعتقاد بأنّ القادح لزناد التقدّم جدليّة دؤوب بين الفكر والواقع. فلم تكن نهضة الأمم قطّ مشروعا نهائيّا مغلقا ولا حركة خطّية تحدّد بنقطتين انطلاقا ووصول كالصوت بين لحظتين من السّكون. فالنّهضة والسّكون ضدّان لا يجتمعان وخطّان متوازيان لا يلتقيان وعلينا أيضا أن نعي أنّ قرنا من الزّمان ليس ضمانا كافيا لتأمين نهضة أمّة قبعت خارج فلك التّاريخ لمدّة عدّة قرون. فضلا عمّا كبّلت به نفسها من كوابح وأغلال وما ضرب الغير حولها من أطواق وأسوار. ولنا عبرة كذلك بنهضة الغرب التي لم تتسلّق مدارج رقيّها الحضاري الراهن إلاّ بعد أن مضى عليها خمسة قرون من المدّ والجزر والطفرة والردّة حتى توضّحت لديها الرّؤى واستقامت أمامها السبل على نحو ما نشهده اليوم.

فهل نروم القفز ثانية على التاريخ ؟

أولى بنا إذن أن نساير منطق الأحداث وأنّ نحترم قوانينها حتى يمكن لنا التدخّل عند الضرورة لتقويم سيرها ولتحقيق ما نهفو إليه من غايات وبلُوغ ما نصبو إليه من أهداف ضمن الاطار الطبيعي لسيرورة التاريخ وليس

على هامشه ولا بالتّصادم معه أو التّحليق عليه وإلاّ كان مصيرنا مصير الغافلين الحالمين أو التّائهين الحائرين.

فنحن إذن بانكبابنا من جديد على فكر النهضة ومساءلته مساءلة نقديّة عن مقدّماته ونتائجه وعن آليات اشتغاله وعن دوافعه ومؤثّراته ونوازعه ومناهجه المحدّدة لمساره إنّما نقطع مرحلة أخرى ضروريّة في سبيل النهوض. إذ بكشفنا عن علل الماضي يتاح لنا التعرّف على أوضاعنا الراهنة ويتسنّى لنا تفسير ما استغلق علينا فيها من ظواهر حتى نرتئي لها من الحلول ماهو بها أليق وأنسب.

وفي إطار هذه المساءلة يندرج البحث الذي اضطلع به الأستاذ نور *الدّين المكشّر* حول ***«زعماء الإصلاح وقضية تعدّد الزوجات»*** مُقدما فيه على معالجة مسألة حسّاسة وشائكة، وعلى مباشرة إحدى القضايا المعضلات التي واجهها الفكر العربي الإسلامي الحديث في خوضه لمسار الإصلاح الإجتماعي والدّيني. فهي من القضايا التي ما فتئت تثير جدلا منذ مطلع عصر النّهضة إلى يوم الناس هذا وما انفكّت تطرح على بساط البحث ويثار حولها الخلاف الحادّ بين وجهات النظر في عصر ناهض التعدّد وناصر حقوق المرأة في نطاق مناصرته الشاملة لحقوق الإنسان. فهل كانت جهود المصلحين إذن صيحة في واد أو نفخه في رماد ؟ وهل عانى الفكر النهضوي قصورا ذاتيًا أو كابد خللا في البلاغ ؟ وإلى أيّ مدى كانت مقاربته لهذه

المسألة جذريّة وحاسمة ؟ وهل يتكفّل بتفسير ما طفا على السّطح من رؤى أمعن في مقاومتها حتى استقرّ في الضمير الجمعي زوالها؟

تلك أسئلة يروم هذا البحث طرحها، ويتحفّز جاهدا للاجابة عنها من خلال التّأمّل في خفايا هذا الموضوع الدقيق والتّصفّح لشتّى المواقف إزاءه منذ طلائع عصر النّهضة إلى موفّى الستّينات من هذا القرن ولعلّ في تناول الباحث لقضيّة بعينها من أمّهات القضايا التي أثارها فكر النّهضة ما يكفل التعمّق في مكنون هذا الفكر وسبر أغواره واستكشاف مجاهله والوقوف على مكوّناته واستجلاء عناصره ورصد العلاقات القائمة بين أجزائه والقوانين المتحكّمة بمنطقه الداخلي ممّا يساعد على تعيين طبيعته. وهو مطلب قد يعزّ تحقيقه باحتضان مشاغل النّهضة جملة دون المرور بها تفصيلا.

هذا وقد بذل الباحث من الجهد في تحسّس هذه الغايات القصوى وتقييد أوابدها ما كنت شاهده وما أنا تارك للقارىء الكريم عناية التحقيق فيه والتثمين له.

ولا ريب عندي أيضا في أنّه سيساهم بقراءته له في هذا الدور التقييمي لفكرنا القديم الجديد بمثل ما ساهم به من كلف نفسه عناء تحريره. فإنّما بمثل ذلك التناغم الفكري يمكننا أن نخطو بفكر النهضة إلى نهضة الفكر...

توفيق بن عامر